الاستخبارات منزعجة لفشلها في تحديد مكان شليط رغم جميع العمليات العسكرية في القطاع

عملية بيت حانون يجب ان تكون الاخيرة لاسرائيل والا فقدت كل شرعية دولية للدفاع عن نفسها

■ يُعقد هذا الاسبوع اجتماع سيكون اجتماع الأوزات العرجاء الأكثر تمييزا في جميع الاوقات. المضيف هو جورج بوش، الذي تلقى هذا الاسبوع هزيمة مدوية، عندما خسر مجلس النواب والشيوخ وسيتدهور خلال السنتين القادمتين المتبقيتين له في الولاية، الى الخارج. والضيف هو ايهود اولمرت الذي سيجلب معه مخلفات قنبلة ضالة من النوع الذي قتل وأصاب العشرات، وتسببت في أعقابها بعشرات التحقيقات والبيانات والفضائح.

من اجل ماذا كان الرجلان بحاجة الى هذا الاجتماع يوم الاثنين؟ ليس واضحا. الامريكيون باتوا معتادين على مثل هذه الزيارات الفارغة، مثل زيارة وزيرة الخارجية تسيبي ليفني الى واشنطن منذ وقت قصير. إلا أن بوش واولمرت سيتعانقان مثل شخصين يقويان بعضهما وهما يغرقان في البحر. لدى بوش وزير دفاع قدم استقالته وانتهى الامر، ولكن لدى اولمرت، ليس بعد، «قريبا عندي»، هكذا يُمني اولمرت نفسه. لكن هذا لا يحدث حتى الآن. فوجود وبقاء بيرتس وثقله ما زالت تقف لاولمرت مثل حجر الرحى على عنقه.

كان على بيرتس ان يتخذ يوم الاربعاء الماضي قرارا صعبا: هنا، خلال ساعات الصباح المشرقة، وأمام برك الدماء التي لم تُغسل عن ارض بيت حانون، تأكد من امكانية استهداف احمد عواد وتصفيته، حيث اعتبر هذا الشخص المسؤول الاول عن تجهيزات صواريخ القسام في القطاع. وكان على بيرتس ان يمثل شخصية القيادي. من ناحية فان خطأ صغيرا لسلاح الجو في هذه العملية، يؤدي الى قتل بضعة اشخاص مدنيين، أو على الأقل طفل واحد أو اثنين، فاننا حقا سنودع كل شرعية دولية تقف معنا للدفاع عن انفسنا. ومن ناحية اخرى فان هذه تشكل فرصة تنفيذية نادرة للغاية.

لقد وزن بيرتس ذلك وقرر: التنفيذ. في نهاية الامر هو يعيش في سدروت. وعملية الاستهداف نجحت ومات المهندس. هكذا يمكن لوزير الدفاع ان يرفع لنفسه علامة النصر. من ناحية القرارات الصائبة التي اتخذها خلال الشهر الأخير، توجد علامة واحدة فقط، بعيدة، لكنها تلمع في الظلام، الغاء جولة التعيينات التي أعلنها رئيس الاركان، وهذا ما سنعود اليه فيما بعد.

الآن في غزة، مشغولون كالعادة، يدخلون ويخرجون، يقتلون، يُصفون، والصواريخ ما زالت تنطلق من هناك وتسقط على مستوطنات الجنوب. دولة اسرائيل تلقي على عاتق الجيش الاسرائيلي مهمة صعبة غير ممكنة التنفيذ: «منع دخول الهواء الذي يتسرب من شقوق النوافذ دون اغلاق هذه النوافذ». هكذا وصف الامر الجنرال احتياط يوم طوف ساميا. محور فيلادلفيا مخترق من كل الجهات، وآلة الارهاب تتقوى وتشتد من كل الاتجاهات دون توقف، وعلى الجيش الاسرائيلي أن يلاحق مطلقي صواريخ القسام في المناطق المأهولة بالسكان، وأن يقوم بالتقاطهم من هناك بـ «ملقط» قبل نصف دقيقة من القصف. في بعض الاحيان ننجح بذلك. وعندما تتشوش الامور، كما حدث هذا الاسبوع، فاننا نبدأ بالحجج والمعاذير.

لقد وصل تحذير من امكانية وصول خلية لاطلاق الصواريخ الى المنطقة التي يطلقون منها على سدروت. كانوا يتحدثون عن قصف صباحي، وهذا يعني امكانية اصابة طلاب المدارس الذين كانوا سيغادرون بيوتهم الساعة الثامنة تقريبا. الجيش الذي يُطلب اليه الدفاع عن المواطنين، يعمل كل ما يستطيع. وفي هذه الحادثة، ورغم تقليل استخدام المدفعية، تقرر القيام بعملية «مانعة» يكون بامكانها ردع الذين يريدون اطلاق الصواريخ قبل ساعة واحدة من بدء الدراسة. والبقية كلها أصبحت تاريخا معروفا ودمويا.

الآن لا بد ان نقرر ماذا بعد، ان تجاهلا سياسيا تاما يلغي امكانية خيار سياسي يمكن بواسطته الحصول على الهدوء واعادته الينا. الضوء الوحيد الذي نراه في نهاية النفق هو مشاهدة كميات تهريب الاسلحة والوسائل القتالية من سيناء (!) الى منظمات حماس والجهاد الاسلامي وتخزينه في غزة. الجيش الاسرائيلي وجهاز «الشاباك» يدفعان باتجاه القيام بعملية عسكرية واسعة وفعالة وشاملة في غزة، ودروس المعركة مع حزب الله هي التي توجه الجيش وتدفعه لكي لا ينام، بل حتى لا ينعس، وأن لا يأمل بقيام أحد باغلاق هذه الأنفاق وتفكيك الصواريخ، فلا يوجد أحد كهذا، غيرنا.

الجنرال غالنت، قائد المنطقة الجنوبية، يوصي باستمرار القيام بعمليات تسلل، وعمليات عسكرية ومبادرات. و«غيوم الخريف» كانت واحدة من هذه العمليات التي حاول وزير الدفاع تقليصها وتحجيمها قدر المستطاع. الآن، أصبح وزير الدفاع يفضل العمليات الظرفية فقط. فلا حاجة للاحتلال، ولا حاجة للدخول والخروج. اذا، لا بد لبيرتس أن يهدأ. المشكلة أن غالنت قد هدأه (بصعوبة ما)، ولكن المنطقة لم تهدأ.

في مثل هذه الحالة الموجعة للامور، كان لا بد من انفجار قوي حتى يقوم أحدهم باطفاء النار. ربما اتفاق مرحلي مع حماس، يتضمن اطلاق سراح الجندي شليط ووقف اطلاق النار لمدة طويلة. وهنا لا بد أن يقرر اولمرت اتخاذ قرارات صعبة، قيادية. ولا يُعرف ما اذا كان قد أصبح جاهزا لاتخاذها في حالتنا. كل ما ينشر حول الصفقة القادمة من اجل اطلاق سراح شليط يقوم بالأساس على الشائعات والتسريبات التي تصدر عن خالد مشعل. وفي الواقع، فان الصفقة معطلة في مكان ما منذ وقت طويل. لقد وافقت اسرائيل على اطلاق سراح عدد معين من السجناء الفلسطينيين، وهكذا تتسلم حماس دفعة السجناء في نفس الوقت الذي يُحرر فيه شليط، وبعد شهرين من ذلك يمكن لحماس ان تتسلم الكوبون اللازم منذ البداية.

ما الذي لا توافق عليه اسرائيل؟ العدد. حماس تتحدث عن ألف سجين، واسرائيل في هذه المرحلة تتحدث عن 80، وربما 100. حماس تطالب بجميع القاصرين والنساء، واسرائيل مستعدة لاطلاق سراح النساء ممن ليست على أيديهن دماء (سبع بالضبط) بالاضافة الى القاصرين. أي نحو مائة وأكثر تقريبا. حماس تتحدث عن جميع السجناء المعتقلين والمحكومين بما يزيد على 25 سنة. واسرائيل مستعدة بشرط أن لا يكون احد هؤلاء متورطا في عمليات ارهاب. باختصار، يوجد نهر عريض من الدماء يُفرق ما بين الموقفين. البعثة المصرية تعبت أقدامها ما بين غزة والقدس، أو تل ابيب لعقد اجتماعات اسبوعية، والتقريب بين المواقف ضئيل، وما زالوا بانتظار ما يشق الطريق في هذه العملية. هل يا ترى تأكد لاولمرت الآن أن عليه أن يتخذ القرار الصحيح والشجاع؟ يبدو أن هذين الأمرين ما زالا بعيدين كل البعد عنا.

الشيء الوحيد الجيد هنا هو أن شليط ما زال على قيد الحياة، حسب كل المعطيات والمعلومات، وأن حالته «جيدة» ولا خوف على سلامته. هو مخبأ في غزة في مكان ما تحت الارض، دون أي علاقة مع العالم الخارجي. وخاطفوه يجرون الاتصال مع العالم الخارجي بواسطة رجال الاتصال. والجهود الاستخبارية القوية جدا لجهاز «الشاباك» لتحديد مكانه، لاقت فشلها الذريع. وفقا لمصادر فلسطينية فقد اقترح المصريون نقل «علامة على الحياة» من شليط الى الاسرائيليين، ربما رسالة اخرى، وبعد ذلك تخلت اسرائيل عن ذلك، فهو على قيد الحياة. وهذا ما يعرفونه بالتأكيد. وكل دليل جديد على وجوده حيا ليس إلا حلقة جديدة في الحرب النفسية الدائرة بين الطرفين في هذه القضية، أعصاب، توتر، قنابل وصواريخ. هذه هي أدوات الحرب في غزة.

«يسفكون دمي»

لولا هذه المأساة في بيت حانون لكانت عناوين الأخبار متجهة (ثانية) لما يحدث في الجيش الاسرائيلي. لجنة تحقيق حول أحداث اختطاف الجنود في الشمال، برئاسة العميد (احتياط) دورون الموغ، كانت ستنشر تقريرا وتوصيات عن ذلك.

وحول ذلك دارت دراما حقيقية عملاقة نشرتها «معاريف» في يوم الثلاثاء من هذا الاسبوع حول نية اللجنة بأن توصي بابعاد قائد الفرقة العسكرية «فرقة الجليل»، العميد غال هيرش عن منصبه. الموغ اجتمع مع رئيس الاركان وقدم له تقريرا عن نيته تلك. بل انه اتصل شخصيا مع هيرش.

وفي أعقاب ذلك بدأ سباق الأشباح في الجيش، الذي يشارك فيه الجميع تقريبا. مكانة رئيس الاركان الذي ستقوم هذه التوصيات بتقليص محاولته في التغطية على اعادة تعيين هيرش كقائد للوحدة الاستراتيجية في قسم التخطيط، ستهتز. وهناك العديد من كبار الضباط يقومون بالاتصال مع الموغ ويمارسون عليه الضغوط كي يعمل على تخفيف حدة هذه التوصيات. ان أداء هيرش لعمله القيادي خلال الحرب نفسها، الذي وُجد جيدا، وطريقة اعداده للفرقة طوال المدة التي سبقت اندلاع الحرب تؤكد بأنه ضابط متزن ومحافظ. إلا أن كل ذلك مطروح للنقاش، بنغمات وصوت مرتفع جدا.

لقد قاتل هيرش، شخصيا، ولا توجد لديه في هذه المرحلة أي نية للتنازل. «يسفكون دمي»، هكذا يقول في الأحاديث المغلقة، «يحاولون أن يلقوا علي بهذا الملف»، وباستثناء المسألة الشخصية، فان الحديث يدور ايضا عن مسألة مبدئية وتنفيذية: من هو الصادق؟ وبذلك هذا متعلق بـ «من الذي يسألونه عن ذلك».

وفقا لما وجدته لجنة الموغ، فان فرقة الجليل بقيادة هيرش قد تجاهلت كل التحذيرات والانذارات الاستخبارية الدقيقة، كما كانت عليه بالنسبة لعملية اختطاف الجندي شليط في الجنوب ايضا، وبذلك أعاد مستوى حالة الاستعداد من المستوى الخامس الى المستوى الثالث، وذلك قبل ايام معدودة من اختطاف الجنديين غولد فاسر وريغف. ل

كن هيرش ينفي ذلك بشدة، ويروي للاصدقاء بأنه لم تكن هناك أية انذارات، وأن كل التحذيرات التي كانت موجودة، والتي بسببها رفعت على عاتقي ومسؤوليتي درجة الاستعداد في كل الاشهر التي سبقت عملية الاختطاف، كانت تحذيرات نتيجة لعمل خاص من عندي. ويضيف بأنه قبل أن يقوم بتخفيض مستوى حالة الاستعداد عنده، قام بارسال ضابط الاستخبارات التابع للفرقة الى قيادة جهاز الاستخبارات في هيئة الاركان العامة في تل ابيب لكي يتأكد من عدم وجود انذارات هناك. وسافر الضابط وعاد الى الفرقة دون انذارات. والآن، فانهم يلقون عليه، هكذا، كل الامور.

وفقا لحديث المقربين من هيرش، فقد جلس في لجنة الموغ رجال الاستخبارات بصفة أساسية، لذلك فان هؤلاء يفضلون الرواية الاستخبارية. كيف يمكن القول أنني لم أكن مطلعا على المعلومات الاستخبارية والانذارات، يقول هيرش، الجميع في الجيش يدعونني بلقب «الانذاري»، وقد كنت شخصيا أُحذر في كل الاجتماعات، ورئيس الاركان كان يسمعني وأنا أتحدث عن مخاطر الاختطاف، وعن أننا نُهمل هذه الحدود الشمالية، وكان يعلق على حديثي بأنني أسعى فقط للفت الأنظار لي. وكنت أطالب بمزيد من الامكانيات باستمرار، مزيد من آلات التصوير، عمليات تسلل الى داخل الحدود اللبنانية، إلا أن رئيس الاركان لم يصغ الي. والآن، فان هيرش يطلب حماية وغطاء علنيا من رئيس الاركان حلوتس. والمسألة أصبحت كيف يعطي لهيرش هذه التغطية. فحلوتس نفسه بحاجة للدعم ولمن يغطيه. ولا يوجد.

ايام قاسية تمر على هيرش الآن، بناته أصبحن يخفن من الذهاب الى المدرسة. وزوجته تضغط عليه كي يتخلى عن كل شيء، وأن يترك كل شيء ويغادر بقدميه الجيش وأن يهتم بالحياة الجديدة، إلا أن هيرش لا يعتزم أن يتنازل في هذه المرحلة. لديه المادة اللازمة، فهو يستطيع أن يثبت كيف سلبوه من كل الامكانيات الخاصة قبل الاختطاف، وكيف، في لحظة واحدة، أعادوا كل شيء، بما في ذلك آلات التصوير الناقصة، بعد يوم واحد من عملية الاختطاف، وهو يستطيع ان يُظهر كيف أن كل عربي مع «آر.بي.جي» وراء خط الحدود كان يمكنه الابقاء على الجيش الاسرائيلي وكأنه رهينة.

رئيس الوزراء زاره في الاسبوع الماضي، وهناك جلس هيرش مع كل ضباط فرقته وعرض أمام اولمرت العديد من النقاط التي انتصرت فيها الفرقة في تلك الحرب. واولمرت المعروف على أنه «ذئب سياسي» ذو عيون حادة ونافذة، حاول بعد ذلك، وبكلمات رقيقة، أن يفحص ما اذا كانت توجد ايضا حالات فشل، واحتار هيرش بذلك، فلماذا لم يتحدثوا عن ذلك ايضا؟ إلا أن قادة فرقته تنحنحوا وسعلوا من حلوقهم وصمتوا. الآن، هيرش يأمل أن هؤلاء سيخترقون الصمت. وحسب رأيه، فقد سبق له أن قاد تسع فرق وأنجز خلالها نجاحات جيدة. والآن، الى أن يجدوا ذلك الشخص الذي طلب الحصول على «صور الانتصار في بنت جبيل»، فان الكل سيلاحق هيرش، ولا يعلم لماذا طلبوا منه ذلك ولمصلحة من، في اظهار تلك الصور وكأن الجيش كان ينتصر بدلا من اظهار حقيقة الوضع هناك، في كل نقاط الجبهة.

حاليا، فان رئيس الاركان بدوره يخوض حربا من اجل النجاة باسمه بغض النظر عن النتائج التي ستحل بغيره بهذا الصدد.

فالجنرال حلوتس وحيدا في هذه الايام، يطل من نافذة الطابق 14 على الاضواء المتلألئة في ارجاء تل ابيب، وعلى الاجواء المتكدرة في أفقها، ولا يصدق بان هذا ما حصل له. الوعد الصادق الكبير للدولة، الموعود، الخاص، اصبح عبارة عن سلسلة لتجميع هذه الضربات القومية. وهذا غير جيد. وهنا نتحدث، وهذا غير مسموح به، عن أحد القادة اللامعين الذين خرجوا من سلاح الجو، وعن محارب كثير وكبير القيم وذي كفاءات عالية غير ظاهرة. ومن الناحية الاخرى، فان تعيينه كرئيس للاركان برز (مؤخرا) على أنه خطأ كبير وأكيد، بل خطأ استراتيجي جوهري للغاية. وهذا «درس آخر من دروس الحرب اللبنانية الثانية» هذا ما اخبره به أحد الاشخاص العسكريين الكبار المعروفين «لن يكون في الدولة رئيس للاركان بعد الان».

وما العمل مع حلوتس؟ فهو لا ينهار ـ حتى الان ـ رغم كل هذه المواد ضده، ولا يتنازل، فمن الصعب جدا رؤيته يستقيل. صعب، ولكنه ممكن. فاذا اتضح له ـ على سبيل المثال ـ ان الحكومة تعيق عملية الميزانية (العسكرية) فبامكانه استغلال ذلك كمبرر لاعلان استقالته. وان من خلف بوغي يعلون الذي شغل المنصب لثلاث سنوات فقط، وامضى فيه سنتين فقط (!) وكان يأمل باربع سنوات، هل يذهب هكذا الى البيت؟ غير معقول، غير منطقي، ولا حتى في السماء.

امتحان عمري شارون

نشر هذا الاسبوع مراقب الدولة تقريرا خاصا حول مخالفات في تمويل الانتخابات الداخلية لاعضاء الكنيست. ويوجد فيه كل شيء: معطيات، ارقام، تجاوزات، تضليلات، وان كثيرا من اعضاء الكنيست جمعوا أكثر بكثير مما يسمع به في القانون. ما الشيء الناقص في هذا التقرير؟ فقط قيام الشرطة بالتحقيق، وبعد ذلك توجيه لوائح الاتهام. ويبدو أن المراقب قد عقد «صفقة» مع ممثلي الشعب، فقد قاموا باعادة هذه الاموال سرا، وبذلك انهى هذه القصة، ليس تحقيق الشرطة، ولا لوائح الاتهام، ولا أي شيء.

وفجأة، ومن الذاكرة البعيدة، يرجع اسم عمري شارون. هذا الشخص الذي كان من المقرر ان يُسجن على مثل هذه المخالفات. فهو سبق له ان جمع الاموال لمثل هذا الغرض لوالده (شارون)، وحكم عليه بالسجن الفعلي لذلك، وبذلك جرى هناك نوع من الصفقات أجبر فيه المتهمون على التوقيع على تعهدات، باعادة الاموال اولا، وبعدم ارتكاب مثلها ثانيا.

وهناك، في هذا السياق ايضا، عدد لا يستهان به من الذين قاموا بجمع هذه الاموال لاعضاء الكنيست، امثال شارون، جونيور، دوري كلسبلة، وغيرهم. وهنا بدأ السؤال الغريب يطرح نفسه: هل توجد شرطة في القدس؟ لعلهم يقرأون الصحف في مكاتبهم، أو يمضون الوقت بالدخول الى مواقع على شبكة الانترنت، او يحسنون طرق التسلل والتنصت على المكالمات الهاتفية على امثال الوزير حاييم رامون، لبذل كل النفوذ والامكانيات القوية والنافذة، وخلق كل ما يمكن ايجاده من اجل ادانة هذا المسؤول او ذاك، ولهذه الاغراض، تصرف كل الميزانيات، والامكانيات، ويتم ايفاد المحققين حتى الى كوستاريكا من اجل تخريب سيرة ذاتية لوزير عدل في دولة اسرائيل.

في الاسابيع الاخيرة، وبما يتناسب مع تصاعد وحشد الجهود التي تبذل من اجل بلورة خطة تهدف الى ارباك وتعقيد تلك الخطة الشاملة التي خطط لها ودرسها بعناية من اجل الاصلاحات الشاملة في وزارة العدل (الاسرائيلية) وفي المحاكم، فان هذا ما اخاف وردع الكثيرين من امكانية تنفيذ ذلك، وهذا ما جر عليه تضافر جهود الكثيرين ممن لا يريدون ذلك، وبالتالي «رتبوا» له ملفا جيدا ومحكما. لان البعض كان لا يريد «لهذا الوقح» ان يقوم هو بتعيين رئيس المحكمة العليا. وان «هذا الوقح» ـ العبارة التي كانت تقولها احدى الشخصيات عن رامون ـ كانت واحدة من العبارات التي عكست افكارا لدى اصحابها في هذا السياق.

ومن خلال هذه الفوضى، فلا بد هنا من الاستمرار في قيادة وادارة دولة، فهل هناك من يتذكر بان افيغدور ليبرمان قد انضم الى هذه الحكومة قبل اسبوعين؟ فهذه أصبحت اخبارا قديمة. ففي حزب كديما سُمعت هذه الايام همسات تقول بأن الوزير زئيف بويم سيتم ايفاده كسفير لاسرائيل في لندن، وان ملف (حقيبة) الاستيعاب سيتم تحويله للوزير ليبرمان، وفيما بعد حقيبة اخرى (مقابل الرفاه الاجتماعي الذي سيحصل عليه حزب العمل). ليبرمان يتحدث عن المزيد، وهذا ما يمكن القيام به في شهر اذار (مارس) العام القادم، والذي سيحصل فيه ليبرمان (تعديلات وزارية) على حقيبتين اضافيتين، وهكذا يواصلون القيام بأعمال تستهدف الحفاظ والاستحواذ على السلطة السياسية، يفعلون كل شيء (باستثناء الشيء الصحيح) ليربحوا نصف سنة اخرى، او سنة اخرى في السلطة. هكذا تدار دولة اسرائيل الان، هكذا تنتقل من فضيحة الى خراب، ومن فساد مستمر الى ابتزاز بشع.

المهم ان تستمرّ مسيرات وطوابير الوزير التي ستزور لوس انجلوس في الاسبوع القادم لتشارك في المؤتمرات اليهودية في شمال امريكا ولكي يجلبوا الانتباه لاخوانهم في الجنوب وخارج البلاد على حساب الاخرين ويغطوا بذلك على المشاكل الموجودة. فهذه ـ المشاكل ـ يمكنها الانتظار لوقت أطول.

بن كاسبيت
كاتب رئيسي في الصحيفة
(معاريف) 2006/11/10

لتزامنها مع التغيرات في البيت الابيض

القذيفة الضالة في بيت حانون كانت هدية من السماء لحماس

■ الاتصالات الرامية الى اطلاق سراح جلعاد شليط أفاقت من جديد في مساء يوم الثلاثاء فور انتهاء عملية «غيوم الخريف» ومغادرة الجيش الاسرائيلي لبيت حانون. حماس اشترطت استئناف المفاوضات بايقاف العملية وأصرت على موقفها. مصادر فلسطينية قالت ان عوفر ديكل، نائب رئيس «الشاباك» سابقا الذي يترأس الوفد الاسرائيلي للمفاوضات، يوشك على التوجه الى مصر حتى يكون ضلعا ثالثة في المفاوضات الجارية في القاهرة على مثلث حماس ـ مصر ـ اسرائيل.

جلعاد شليط اختطف قبل اربعة اشهر ونصف في الخامس والعشرين من حزيران (يونيو)، ولكن المسيرة الحقيقية الأكثر أهمية في المفاوضات الجارية لاطلاق سراحه بدأت في الاسبوع السابق لعملية «غيوم الخريف»، وهذه البداية فقط بطبيعة الحال. الفجوات بين اسرائيل والفلسطينيين بقيت عميقة كما كانت. ليس هناك اتفاق على عدد السجناء الفلسطينيين الذين سيُطلق سراحهم، ولا على معاييرهم أو مراحل التبادل. جسر هذه الفجوات قد يمتد لاسابيع كثيرة. الانطلاقة الدراماتيكية التي تحدث عنها الفلسطينيون كانت في الواقع عملية بدء المفاوضات.

عملية بيت حانون الضارية لم تؤثر على المفاوضات، رغم ان ذلك يبدو غريبا للسامعين. هذه المفاوضات لم تقم بدفع المفاوضات الى الأمام، ولم تؤد الى تدهورها من الناحية الاخرى. أطراف الخيط التي أُعدت قبل ذلك جمدت، لتعود الى السخونة من جديد في يوم الثلاثاء.

إلا ان المسألة صمدت يوما ونصف فقط. في صبيحة يوم الاربعاء سقطت قذائف المدفعية الاسرائيلية على المنزل في بيت حانون، فسقط 19 قتيلا وأصيب العشرات بجروح وكلهم كانوا من المدنيين. العالم غضب والاصوات تعالت مطالبة بالانتقام.

ورغم كل ذلك، تفيد التقديرات الاسرائيلية أن مفاوضات اطلاق سراح شليط ستجتاز هذه الازمة. الفلسطينيون لم يمسوه بسوء خلال عملية بيت حانون، وهذا ما سيفعلونه الآن ايضا. في اسرائيل يعتقدون ان مصلحة حماس تكمن في مواصلة المفاوضات وجباية الثمن الباهظ عن شليط، بما في ذلك الاعتراف بمكانتها كطرف سلطوي شرعي. هذه المصلحة ستتغلب على رغبتهم في الانتقام حسب الاعتقاد الاسرائيلي.

فهل سترفع حماس من الثمن المطلوب الآن؟ هل ستتشدد في مواقفها؟ من المبكر ان نعرف ذلك. تأثير حادثة اطلاق النار على قضية الاختطاف ما زال غير واضح.

الحادثة الأخيرة التي تلت عملية بيت حانون أعطت لحماس الشرعية للعودة الى طريق العمليات، علما انها لم تتخل عنها كليا، وانما خفضت من مستواها وانتقلت الى ما وراء الكواليس. الآن حماس تنوي العودة الى مقدمة الخشبة. يوم الجمعة يوم الصلوات في المسجد الاقصى، سيكون يوم الامتحان.

جهاز الأمن يستعد الآن لامكانية القيام بعمليات انتحارية من الضفة واطلاق الصواريخ من غزة ومحاولات تنفيذ العمليات بواسطة الأنفاق بما فيها الأنفاق المفخخة. الافتراض هو أن هناك عددا لا بأس به من الأنفاق الجاهزة أو قيد التجهيز والتي لا توجد لدينا أية معلومات عنها.

قدرة حماس والجهاد الصاروخية ما زالت على حالها حيث تتراوح عند 250 صاروخا شهريا إلا أن تحسن نوعية المتفجرات التي دخلت الى القطاع يزيد من نوعية الصواريخ سواء من حيث الدقة أو من حيث شدة الرؤوس المتفجرة. منذ شهري حزيران (يونيو) ـ تموز (يوليو) 2005 أطلق صاروخ من مرحلتين ووصل الى عسقلان. في يوم الثلاثاء من هذا الاسبوع أطلقت اربعة صواريخ اخرى الى داخل المدينة. من المحتمل أن يكون عدد الصواريخ القادرة على الوصول الى عسقلان أكبر من السابق. ومن المحتمل ايضا أن تكون كمية صواريخ غراد القادرة على ضرب قلب عسقلان قد ازدادت. هذه الصواريخ آخذة في التحسن في المحصلة الأخيرة، ولكن التغير ليس كبيرا بعد. جيش حماس لا يملك قدرة ردعية بعد في مواجهة اسرائيل، ولا قدرة على جعلها تدفع ثمنا عن هجماتها.

«غيوم الخريف» زادت من وتيرة تسلح حماس. خلال العملية لم تظهر بعد الوسائل التي تُعدها حماس ضد الاجتياحات الاسرائيلية لغزة وفق اسلوب حزب الله اللبناني، ولكن هذا ايضا سيأتي خلال بضعة اشهر. اسرائيل من ناحيتها ستواصل بذل كافة الجهود لتشويش هذا السباق ـ سواء من خلال الضغط السياسي أو من خلال العمليات العسكرية.

كتاب الجيش الاسرائيلي

عملية «غيوم الخريف» هي مناورة حية لنموذج جاهز يتضمن السيطرة على مناطق سكانية مكتظة لمدة اسبوع وجباية ثمن باهظ من وحدات حماس المسلحة كجزء من الاستعداد لعمليات أوسع نطاقا في مناطق اخرى. النية لم تكن ايقاف صواريخ القسام، لذلك كانت العملية ناجحة جدا من ناحية الأهداف التي وضعتها قيادة المنطقة الجنوبية لنفسها.

عملية بيت حانون كانت مناورة للمرحلة الاولى من النموذج المُعد، وهي مرحلة «السيطرة» التي تليها مرحلة «التموقع» ومن ثم مرحلة «الاحتلال».

جيش حماس لم يكن جاهزا بعد للتصادم مع الجيش الاسرائيلي، الامر الذي مكّن الجنود من التدرب على القتال في منطقة مأهولة والسيطرة على الأحياء. في المرحلة الاولى تم تحديد مئات المباني حيث دخل الجنود اليها للتفتيش والبحث. الجزء الثاني تضمن الدخول الى أحياء لم يسيطر عليها الجيش وانما دخلها فقط للاعتقال.

ضباط الادارة المدنية رافقوا القوات المقاتلة كمستشارين اختصاصيين وأجروا الاتصالات مع الهيئات الدولية وحرصوا على استمرار عمل المستشفيات واخراج المرضى والحوامل وفتح محاور للاسعاف واصلاح بنى تحتية هامة وفتح المخابز ورفع الحظر لعدة ساعات وادخال صهاريج المياه وغيرها من الخطوات التي تحول دون الصرخات المتوقعة بحدوث مجاعة وكارثة انسانية.

بيت حانون كانت محتلة طوال اسبوع. الجيش أخرج الرجال من عمر 16ـ45 من المنازل وقام بعمليات تحقيق وتصادم مع المسلحين. العشرات نُقلوا الى اسرائيل لمواصلة عملية التحقيق، ولذلك لا غرابة من ان الجيش يعبر عن رضاه من العملية. اختبروا النموذج القتالي وقد أثبت نجاعته. المرحلة التالية ستكون سيطرة أكثر تعقيدا على منطقة أكثر اشكالية، وسرعان ما سيحين أوانها.

قسيمة حماس

أما بالنسبة لحماس فقد كانت عملية «غيوم الخريف» حكاية مختلفة تماما. بيت حانون هي حكاية بطولة في نظرهم، وقد تمخضت عن أساطير وتقاليد كفاحية. الاغلبية الساحقة من الستين قتيلا من المسلحين الذين قُتلوا في العملية، هم من حماس.

بطولة النساء الفلسطينيات اللواتي نجحن في تخليص 57 مطلوبا مسلحا من المسجد المحاصر، قد تحولت الى أسطورة. الناطق بلسان الذراع العسكرية لحماس، أبو عبيدة، كان هناك مع عدد آخر من كبار القادة العسكريين. هم قرروا عدم تسليم انفسهم ولاذوا بالفرار. المكبرات بدأت تنادي فخرجت النسوة في مظاهرة مشكلات حزاما بشريا حول المسجد. الجيش أطلق النار نحوهن فقتلت اثنتان، إلا أن المطلوبين نجحوا في المغادرة. أسطورة المرأة الفلسطينية التي شاركت في الكفاح، وصلت الى عنان السماء. بعد ذلك فورا فجرت انتحارية من الجهاد الاسلامي نفسها قبالة قوة اسرائيلية. وفي موازاة ذلك تعزز ادعاء حماس وموقفها بأن تبني اساليب حزب الله هو وحده الكفيل باحراز النصر. البيانات التي تصدرها لم تعد تصدر باسم عز الدين القسام، وانما باسم اللجان الشعبية. الجمهور الفلسطيني يتشرب الرواية الحمساوية لاحداث بيت حانون لانها تلهب خياله.

عشية العملية أشارت الاستطلاعات الداخلية الى تراجع قوة حماس وتزايد الفوضى. وكانت المناوشات بين فتح وحماس متواصلة حيث سقط فيها العشرات، والامور سارت نحو التصادم الداخلي والحرب الأهلية. إلا ان عملية «غيوم الخريف» بددت ذلك. الحوادث التي جرت داخليا (ثمانية) كانت على خلفية جنائية فقط.

استطلاع موقع الانترنت الفلسطيني «عان» الذي شمل 900 مستطلع أشار الى ان 68 في المئة منهم يؤيدون مواصلة اطلاق القسام وتكثيفه في اطار الرد الملائم على دخول اسرائيل الى القطاع. 27 في المئة فقط قالوا ان من الواجب ايقاف الصواريخ. بكلمات اخرى: حماس حصدت قسائم جميلة من عملية «غيوم الخريف».

خطأ المدفعي

حماس خططت لاطلاق رشقات صاروخية بالتزامن مع انسحاب القوات الاسرائيلية من بيت حانون لتأكيد نجاحها، وعدم جدوى العملية الاسرائيلية. في الليلة التي انسحب فيها الجيش من بيت حانون، جاء نشطاء عز الدين القسام خصيصا لاطلاق الصواريخ. في صبيحة اليوم التالي علمت اسرائيل انهم سيقومون باطلاق آخر نحو مدرسة لاصابة الاولاد اثناء الدراسة.

القيادة الجنوبية قررت استخدام المدفعية لابعادهم رغم قرار تقليص استخدامها بعد مقتل عائلة غالية في غزة، وعند الضرورة.

اطلاق القذائف المدفعية في يوم الاربعاء وجه نحو هدفين لابعاد مطلقي الصواريخ. الاول على مسافة 1200 متر من بيت حانون، والثاني على مسافة 500 متر. اطلاق النار نحو الهدف الثاني الأقرب للمدينة انتهى بكارثة. الفلسطينيون يقولون انه كان مقصودا وهو عقوبة على اطلاق الصواريخ على عسقلان.

واسرائيل، كعادتها، تطلق النار على رجلها وتقوم بالتسبب بحدوث الامور اللامتوقعة تماما، مثلما فعل ضابط السفينة الذي قرر اطفاء اجهزة الحماية فتسبب في اصابتها قبالة السواحل اللبنانية.

ما كان مخططا أن يكون اطلاق نار بطيء ومبرمج تحول الى قذف عشوائي نحو المدنيين، فنجم عنه سقوط عشرات الأبرياء بين قتيل وجريح.

تزامن سقوط القذائف مع التغيرات في البيت الابيض كان ناجحا جدا بالنسبة لحماس.

عشية وصول اولمرت الى واشنطن يحدث في امريكا أمران هامان يتعلقان بمنطقتنا: بوش يتلقى على طاولته خطة للانسحاب من العراق (من اعداد جيمس بيكر ولي هاملتون). ولذلك تخلص من رامسفيلد ليبدأ بعد حين عهد الانسحاب من العراق. أما الامر الثاني فهو انتهاء الانتخابات الامريكية وتحرر بوش من الحاجة لابداء موقف لامساوم في مواجهة الارهاب.

الآن أصبح بوش مضطرا لاتباع سياسة ثنائية الحزب قائمة على أساس التفاهم مع الديمقراطيين مثل العمل البناء في الشرق الاوسط والخروج من سياسة اللامبالاة. هذا الهدف يتطلب من الامريكيين السعي الى التدخل وتهدئة الامور وتليين الموقف مع السوريين وحتى مع حماس.

القذائف الضالة في بيت حانون تُسرع بدورها هذه المجريات الحاصلة من تلقاء نفسها، وتعزز الحاجة الى تهدئة الامور بين اسرائيل والفلسطينيين. الوصول الى هذا الهدوء المنشود سيجبر الادارة الامريكية على القبول بهيمنة حماس، وقبول خدعة أنهم يتفاوضون مع أبو مازن رغم الادراك أنه مجرد ستارة، وانه اذا تشكلت حكومة خبراء وسموها حكومة وحدة، فحماس هي التي ستُعين اغلبية اعضائها، وهي التي ستسيطر عليها عن طريق البرلمان.

بكلمات اخرى: المغزى السياسي للسياسة الحزبية المزدوجة واستراتيجية الانسحاب من العراق هي ان الادارة الامريكية قد تتخلى عن النظرية السائدة التي تركز على عدم الاعتراف بحكومة حماس والسعي الى اسقاطها منتقلة ـ من دون أن تعلن عن ذلك ـ الى الاعتراف غير المباشر بحكومة حماس. هذه المسألة كانت بمثابة خط احمر حتى اليوم، اما الآن فقد تتغير الاحوال. وهذا ما سيسمعه اولمرت في واشنطن.

بوش سيقترب من الحقبة الجديدة من الموقف الاوروبي، والاوروبيون كما نعلم يرسلون الاموال الى أبو مازن فقط حتى يدفع الرواتب للموظفين، ولكن الموظفين هم أنصار حماس.

سياسة امريكا السلبية تجاه الصراع الاسرائيلي ـ الفلسطيني ستتغير على ما يبدو، وهناك شك اذا كانت اسرائيل ستحصل على المزيد من الضوء الاخضر الاوتوماتيكي لتنفيذ عمليات هجومية مثل «غيوم الخريف». سيكون من الأصعب الآن القيام بخطوات ضرورية لكبح تسلح حماس.

هذا بالنسبة لحماس انجاز هائل. وعلى مشعل وهنية أن يرسلا الزهور للجيش الاسرائيلي عن الخطأ المأساوي في بيت حانون.

اليكس فيشمان
المراسل العسكري للصحيفة
(يديعوت احرونوت) 2006/11/10

ام وطفلاها ضحايا العدوان الاسرائيلي على بيت حانون